ولم يكن ظاهرياً يهتم بالقيام بالأمر . إنه لم يكن يرغب قط بأن يكون فيلسوفاً للتاريخ . أمر العناية بتجديد فكر ثيغو العميق والمجهول ، وبتكرار وتجاوز ما قال به كوندورسيه . (الإنسان لا يستطيع أن يخلق ملكاً . لقد كُتِبَ : أنا الذي أخلق الملوك . بالمعنى الحرفي للكلمة . إن العقل والتجربة يجتمعان ليقوما الدليل على أن الدستور هو عمل إلهي . وكما أن المبدأ الديني هو الذي خلق كل شيء ، دو ميستر لولا الثورة كان من المقدر لهذا النبيل المولود في مقاطعة الساقوا ، والذي كان من رعايا مملكة بيامون - سردينيا ، أن يعيش حياة كريمة ورتيبة ينجز فيها بشكل صارم واجباته الدينية والعائلية والمهنية والمدنية . لأن كل هذه العبقرية (كما سيقول ب . عندما اندلعت الثورة ، وعند ظهور ((تأملات)) بريك ، ففي رسالة وجهها لصديق في كانون الثاني 1791 عبر ميستر عن إعجابه ببيرك ، المشرّعين المزعومين في الجمعية الوطنية ! ولقد عمّق ميستر ، أفكاره المضادة للثورة والتي كانت غريزته لديه إلى حد ما . حوالي عام 1794 ، وفتح نقاشاً بين سيادة الله وسيادة الشعب ، ووجه تحدياً لروسو « ولكل المفكرين الذين هم من طينته)) . ومع ذلك فإننا نجد فيه كل ما هو أساسي في فكر ميستر بحيث أن المؤلف سيستعير منه أكثر من مقطع في مؤلفاته المهيأة للنشر ، الإيرلندي الكبير . عند تطرّقه لمعالجة مفهومي : الطبيعة والعقل وضع ميستر خطاه في خطى متديناً وإجتماعياً)) . الإنسان بكل ما تعنيه الكلمة من معنى . الذي يمكنه لوحده أن يُخبرنا كيف يجب أن يكون الإنسان (وليس في مجتمع ويحكم من قبل هذه السيادة أو تلك . إن ((الفن هو طبيعة الإنسان)) هكذا قال ((بريك بعمق من المستحيل ألا يثير الإعجاب)) : إن تصور الحالة الإجتماعية وكأنها نتيجة لإختيار أو لرضى أو لمداولة أو لعقد بدائي هو نوع من العبث . (إلى وحش)) تكمن كل قوته في التدمير ؛ للدلالة على ذلك ، إلى ما فعله أعضاء الجمعية التأسيسية ، المعهون بفلسفتهم حتى الثالثة . إن هذا العقل لا ينتج لوجده إلا الخلافات ، من أجل أن يُسيّر أموره ، وأنه ليس هناك من شيء مهم بالنسبة له كالأحكام المسبقة : وهي الأراء التي يتم تبنيها قبل أي تفحص ، يتحالفان معاً من أجل أن يُدينا ، كلا من الدساتير المكتوبة وإعلانات الحقوق على طريقة الثوريين الفرنسيين . بليس هناك ما هو أكثر خطأ من الاعتقاد أولاً بأن من الممكن صنع دستور ((كما صنع الساعاتي ساعة)) ، وثانياً أن هذا العمل الكبير يمكن أن يُنفذ من قبل جمعية رجال يتداولون مجتمعين . إن هؤلاء سيكونون بمنتهى الحماسة إذا ما جلسوا حول طاولة وقالوا : (إننا سننتزع من الشعب الفرنسي دستوره القديم وسنعطيه دستوراً آخرأ)) . بفضل عدد لا يُحصى من الظروف التي تُسمّيها ((بالفجائية)) : إن هذا هو الدستور الطبيعي ، الأسبق دائماً من الدستور المكتوب والذي يمكنه ، لأن كل دستور مكتوب ليس إلا إعلاناً لحق سابق غير مكتوب ، ولن يكون هناك مطلقاً ، ولا يمكن أن توجد يمة مُكوّنة بشكل مسبق . إن المنطق والتجربة يجتمعان من أجل إثبات هذه الحقيقة الكبرى . فأني عين تقدر على أن تحيط بنظرة واحدة بمجموع الظروف التي يجب أن تجعل أمة ما مؤهلة لهذا الدستور أو ذاك ؟ وكيف يمكن بشكل خاص لعدة رجال أن يكونوا قادرين على القيام بهذا الجهد العقلي : إن من الواجب الإقرار بأن هذا الأمر مستحيل ، لقد تألق في العالم عدد من الأمم الحرة : فليبينوا لنا أمة واحدة تكونت بالطريقة التي ذكرها بين ؟)) (1) . إن الأمر يتعلق بإغراء وتحريك جمهور أوروبي واسع ، عن بريك الذي قارب صوته الكبير على الإنطفاء (لأنه سيتوفى في عام 1797) . لكن أساس قرار الإتهام ضد النصوص الدستورية الفرنسية لم يتغير . فالمؤلف يرفض أن يكون بإمكان التداول إطلاقاً أن « يُؤسس » بلداً ؛ إن حقوق الشعوب لا يمكن أن تكون مكتوبة ؛ والدستور المكتوب يقتصر على إعلان حقوق سابقة لا يمكن أن نقول عنها ((شيئاً آخر غير أنها موجودة لأنها موجودة)) . ومن جهة أخرى فإنه كلما كتب عن مؤسسة ما أكثر كلم كانت هذه المؤسسة ضعيفة ، لأن الحقوق لا تعلن إلا ((عندما تهاجم)) . ولكن ألا يمكن الاعتراض على هذا الإتهام ، باسم التجربة والتاريخ - أو « السياسة التجريبية)) كما يُسمّيه ميستر - وذلك من خلال مثال الولايات المتحدة الأمريكية ؟ أليست هذه الولايات حيةً ومُصمّمة على البقاء ؛ أليست بعيدة في عام 1796 عن إعطاء أي إشارة على موت قريب ؟ ومع ذلك فإنها عبارة عن جمهورية كبيرة (إتحادية ، حقيقة) ومُنظّمة بموجب دستور مكتوب ، هو دستور 1787 ، الذي يُعتبر حصيله لمداولة مشتركة ويتضمن مبادئ مجردة كلياً : الأمر الذي يُشكّل تحدياً مزدوجاً للتأكيدات القاطعة لمؤلف ((النظرات)) (الذي لم يكن يرفض فقط أن يكون الدستور مكتوباً ، وإنما كان يعلن أيضاً استحالة قيام جمهورية كبيرة ((غير قابلة للتجزئة))) . كان لديه بالتأكيد ما يُردُّ به على هذا الاعتراض . لقد كان يكتفي أن يُشير إلى أن الأمريكيين ، عم 520 (وتقييم السلعات اطحلات العي العلية ليعا ، في حين أن ما هو جديد في دستورهم هو ، والمثال (الذي يختاره بتهور ، حسب نصوص الدستور ، أن تكون مدينة جديدة ، مبنية بشكل مصطنع ، إن مخطط هذه ((المدينة - الملكة)) ، قال ميستر ساخرأ ، بلا قلق بأن هذه المدينة لن تُبنى أو أنها لن تُسمّى بواشنطن أو أنها لن تكون مقراً للكونغرس (٨) ! ولكي نعود لفرنسا وللنص الجديد الذي كتبه الفرنسيون (دستور العام الثالث ، المُسمّى بدستور المديرين) فإن مؤلف ((النظرات)) لم يكن يقصد من كتابتها إلا الحطّ من قيمة النص والنظام

الذي يقوم عليه ، لقد سبق لميستر أن أثار مسألة الدستور ((الطبيعي)) بعبارات لم ينكرها مونتسكيو ، فقال : إن هذه المسألة تكمن في ((إيجاد القوانين الملائمة لامة ما على ضوء معطيات السكان والأخلاق والدين والموقع الجغرافي والثروات والصفات الحسنة والسيئة الموجودة لديها)) ، وعليه فقد أعتقد أن بإمكانه أن يجزم بأن مثل هذه المسألة لم يجر التطرق لها في دستور العام الثالث . فهذا الدستور ، لقد رأيت في حياتي فرنسيين وإيطاليين وروس . إن من الممكن للمرء أن يكون فارسياً ؛ إن هذا الدستور يمكن أن يُقدّم لكل المؤسسات البشرية الممتدة في الصين إلى جنيف . لكن الدستور المصنوع لكل الأمم لا يُعتبر مصنوعاً لأي أمة : إنه مجرد تجريد وعمل مدرسي صُنِعَ من أجل تمرين العقل إنطلاقاً من افتراض مثالي ، ولكن عن بريك متجدد ومجمل ولكنه في عام 1819 ، إلا أنه (Du Pape) صوفية . وهو أساس ديني بشكل رئيسي وعدواني . والذي سيكون (مع ظهور كتابه في البابا البروتستانتي الإيرلندي (المنفتح ، بشكل فريد على الكاثوليكية) (ni in لم يكن من الممكن أن ننتظر أي صياغة لاهوتية أو أين ان lissai sur le ، والسياسي المحترف المتأثر بالنزعة التجريبية الأنجلوسكسونية . أما ميستر فقد عبّر بأكثر قدر من الوضوح بحثه حول المبدأ المولد للدساتير الذي الفه في سان بطرسبرج نحو عام و180 (لكنه لم principe générateur des Constitu- فهو يُشرف على كل المؤسسات السياسية بحيث أن كل شيء يختفي وينهار عندما ينسحب منها ! تلك هي gat يُنشر إلا في عا الفكرة التي يدافع عنها ميستر . إن كل ما يبقى يستمد بقاءه من وجود الله ، والذي بدوره لا يكون الشيء إلا ((خطأً)) وإنحلالاً وعدمًا)) . والدستور لا يمكن أن يبقى ويكون قوياً إلا بقدر ما يكون إلهياً . أن يكون الدستور مكتوباً ومخلوقاً بشكل نسبي : إن الشيء الأساسي ((والدستوري)) من قوانين أمة ما ينبعث من الله وحده ، فلندرس بالأحرى كيف رتبت العناصر المختلفة للدستور الإنكليزي ، من بين هذا الحشد اللامعود من الرجال الذين عملوا في هذا الحقل الواسع ، ما كان يفعله بالنسبة " للكل ، كانت مُوجهة في سقوطها من قبل يد ((معصومة وأعلى من الإنسان)) . لكن كل شيء يبدأ بالإنهيار فور انسحاب هذه اليد ، أو رفض المبدأ الديني وتأسيس كل شيء على عقل الإنسان كما لو كان بإمكانه أن يصمد واقفاً لوحده . بأي نوع من الحنق فصل هذا القرن الشيطاني الألوهية عن كل مؤسساتها ؛ لقد نظر دائماً بعناد للأرض ، لا تمثّل هذه النزعة الانفصالية المتعمدة إلّا مظهره الأقل جهنمية ! ولقد كان من قبيل الخداع البارح أن يُعلن هؤلاء المتآمرون انتماءهم لجون لوك . إن بذور الخطأ الرهيبة المتضمنة في مذهبه ، كان من الممكن أن ((تُجهض بصمت تحت جليد أسلوبه)) ، لكن هذه البذور المتحركة في ((وحول باريس الحارة ، يعتبر أنه ليس هناك من صدفة في حكم الأمور البشرية ، وأن كلمة (حظ)) ليس لها من معنى . إن كل شيء يسير وفق نظام إلهي ، فالله يريد هذه الفوضى أيضاً من أجل غايات يجهلها الإنسان . فلكل شيء قاعدة ، وكل شيء مُحدّد من قبل قوة نادرا تبوح لنا بسرّها)) ، إن الكوارث والحروب والثورات التي تدعها العناية الإلهية تندلع وتسود ، تقيم الدليل على وجود هذه العناية وتبررها .)) لا يتعرف فقط على أصعب العناية الإلهية عندما يراها تنتقم للصالحين وتعاقب الأشرار ، فليس من قبيل العبث أن هزّت العالم بواسطة الثورة الفرنسية . كما كان لها أسبابها في اختيارها فرنسا وصاب اترمة الدينية الي ام لة ال ال ل واة العال ن وعلى يد من ؟ على يد النزعة اليقويية ، وعلى يد العبقريّة الجهنمية لروبسيير . فلقد كان من الواجب الحفاظ على فرنسا لكي تتمكن يوماً من استعادة رسالتها الإلهية ، وقيادة البعث الديني والأخلاقي ، الضروري جدا بعد كل هذه الفوضى . هكذا كان كل الذين كانت الثورة قد خربت وجودهم يقترحون ، تفسيراً فوق طبيعي للأهمم بحيث يُعزّون أنفسهم بأيام أفضل . إن البراهين الحماسية للنظرات كانت تتيح المجال للتنبؤ بوعد رصين بإعادة بناء سنقرؤه فيما بعد في الأمسيات . (إن كل شيء يُبشر بأننا نسير نحو وحدة كبرى . إذا كانت عيون بائسة كعيوننا جديرة باستشفاف الأسرار الإلهية ، فإننا لسنا مسحوقين إلّا لكوننا ممزوجين بها « (1) . عودة القوة الروحية ، لقد كان ميستر يؤمن بهذا . وإنما كنتويج لفكر واثق من نفسه . هل كان بإمكان العناية الإلهية – إذا كانت بحق حكومة كاملة ، ودقيقة ومثابرة ومستبعدة لكل صدفة – أن تستغني عن جهاز دائم ، وعن مقر وأداة (مرئية وسهلة المنال بالنسبة لكل العالم ، ومنازة أرضية)) تسمح بالتعرف عليها من أجل التوجه إليها ؛ ولكن أي جهاز دائم ، وأي منازة أخرى في الأرض غير بابا روما ، وخاصة في عصر ترتجف فيه العروش من أساسها ؛ ألم تكن المشكلة التي أصبحت بفضل التجربة المأساوية تعتبر أكبر مشكلة أوروبية ، والتي تتمثل بالحد من السلطة السيدة دون تهديمها ، فإن السلطة الزمنية التي ينبثق عنها القانون ستجد نفسها إذن محتواة من دون أن يُصاب طابعها المقدس بأي إساءة . عندما كان يحل الرعايا من يمين الولاء ، لم يكن يفعل شيئاً ضد القانون الإلهي . لقد كان يُعبر فقط عن أن ((السيادة هي سلطة إلهية ومقدسة ، لا يمكن مراقبتها إلّا من قبل سلطة إلهية أيضاً ، وتمتّع بشكل خاص بهذه الصلاحية في بعض الحالات الإستثنائية)) . إذا ما وضع نفسه ضمن المنظور الميسترني ، بأن حق « المقاومة » يتحول حينئذ لمجرد حق منع ، وأن هذا الحق أيضاً يرتكز على رأس معروف ووحيد ، الأمر الذي يسمح بإخضاعه

لقواعد ، المُسمَّى بالملكية المحدودة أو الدستورية ، المزعوم أنه الدواء العالمي الشافي لكل الأمراض ، كمنظام عام 1819) ؛ إن القوة البابوية ليس فيها أي شيء محلي أو عابر ؛ القوة الأقل خضوعاً لنزوات السياسة . وعازب وكاهن ((الأمر الذي يستبعد 99٪ من الأخطاء والشهوات التي تثير الإضطرابات في الدول ! وهنا تفرض النتيجة نفسها : ((يبدو إذن أنه من أجل إبقاء السیادات ضمن حدودها الشرعية ، أي من أجل منع خرق القوانين الأساسية للدولة ، فإن تدخل القوة الروحية السامية ، ولكن هل يجب أن نُضيف بأن المؤلّف عندما ستعمل عبارة ((معقولة مثل) المعتدلة ، المنشور فقط في عام 1814 ، بعد عودتها في ذلك الحين ، المحترم بحق . يرمي أصدقاءه من آل بوربون المتربعين جيداً (Charte) لإعطاء الفرنسيين دستوراً مكتوباً أطلقت عليه اسم شرعة ، إن هذا البرهان الذي كان يتوج ببسالة (وبلا تعقل) النزعة الإلهية المنطقية للكاتب الكاثوليكي الكبير ، غير مناسب بشكل واضح ، في وجه الفكر الشرعي والروح الأساسية للدولة – الأمة الملكية . فهذه الدولة (كما نعرف) لم تنطلق ولم يكن بإمكانها أن تنطلق بشكل حقيقي إلا على أنقاض المسيحية الوسيطية ، وبفضل الإنتصار النهائي للملوك على الباباوات ، التي كان ميستر يأخذ بمرارة على بوسيبه إيمانه بها (وهنا كان ينتهي إتفاقهما العميق) ألم تكن جزءاً لا يتجزأ من الملكية القومية والمطلقة ؟ نعم ، الكاتب الدقيق والمجرّب – والمراوغ قليلاً أحياناً – الذي سمح لنفسه أن يوبّخ في هذا الصدد مؤلفاً كان يُعلن ، فهو يرى أن ميستر كان ، إلا أن هذا لا يمنع سانت بوق نفسه من الإعتراف بأنه لم يُعد من الممكن الكتابة عن البابوية بعد ميستر مثلها كان من المسموح القيام به قبله . للعصمة البابوية سيكون هذا الكاتب العبقرى الذي كانت تسكنه موهبة النبوة غير المرئية والمعذّبة – والذي توفي ، وهو مجهول ومصاب بخيبة الأمل ، في مدينة تورينو حيث كان يعتبره بلاط الملك فيكتور عمانوئيل عن الجلاذ والحرب ، إن ميستيري في الجلاذ ((المنفذ) والرمز للعقاب الذى لن يكون إلّ القطب المقابل للسيادة ، أرسى عالماً على هذين القطبين : ((إن كل عظمة وقوة وخضوع ترتكز على المنفذ ، والتهديم العنيف للكائنات الحية . ذات الطابع فوق الطبيعي ، المستمدة من ((القانون الكبير للعالم الروحي)) ، ومع ذلك فإنه سيكون من قبيل الخطأ الكبير أن نفكر بأن ميستر كان يبدي تجاه الحرب ، أو ((مصيبة العدالة الخالدة » كما كان يُسمّيها ، لأن هذا يعني تجاهل المديح الجميل جداً الذي وجهه (في نفس الأمسيات) للإعتدال ، الذي كان ملوك أوروبا يمارسونه بصفة عامة في قيادتهم للمعارك ، ويتجنب ((ضرب السيادة العدو بأي